مستقبل الأدب العربي

ما مستقبل الأدب العربي؟ ما لون اتجاهاته . وما دروب سيره وأخاديد خطاه؟ ما هي العوالم والآفاق التي سيحلّق في فضاء أكوانها ؟ هل يجاري تطورات الزمن في قفزاته العجيبة ؟ هل تكون مادته الحياة العاطفية أو الروح العلمية؟ هل يكون قوميّ الطابع أم انسانيّ النزعة ؟

وشعرنا ما مكانته من أدب الغد ؟ والقصة والرواية . والمسرحية هل تحتلّ مكانتها من الآداب العالمية ؟ أي هل تعبّر التعبير الدقيق عن هذه التيارات الاجتماعية المتطورة التي تواجه الإنسان العربي في مختلف أقطاره ؟

والكتاب العربي هل يقفز عدد طبعاته الى مئات الألوف والى الملايين أم يظلّ في حدود هذه الكمية الضئيلة التي لا تتجاوز البضعة الآلاف والتي قد تهبط ، في مزاد الكساد ، الى المئات !

وأخيراً . . هل يجاري أدبنا في المستقبل آداب الأمم الحية فيترجم الى مختلف اللغات ويكون له مجاله الرحب في غير الوطن العربي ؟

عشرات الأسئلة تمرّ ببال الأديب قبل أن يعالج هذا الموضوع الشائك الذي فرضه عليّ صديق أديب وأراد مني معالجته .

ولا أكتم القارئ الكريم أنني وقفت طويلاً أفكّر في طريق معالجته . من أين أبدأ وكيف أنتهي ؟ وظللت ساعات في حيرتي . . . وكنت كمن يحاول أن يُحلّ مسألة رياضية معقدة . . أو يَفُكّ رموزاً غامضة من أحرف مسمارية أو هيوروغليفية . .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأبادر فأعترف بعجزي عن الوصول الى نتائج صحيحة . وسيكون الحدس والافتراض بعض دعائم هذا البحث . إذ من الصعب أن يتنبأ الانسان عن مستقبل أية ظاهرة من ظواهر الحياة والكون . .

فاذا تنبأ كانت أكثر تنبؤاته هواجس قد يتحقق بعضها . وقد تصبح أضغاث أحلام . ولا سيما اذا كانت غير مستندة الى حقائق العلم .

نعم ، من الصعب أن نتنبأ عن مستقبل أدب ما تزال خطوطه العامة غير محدودة ولما تستقم بعد . .

إن أدباءنا يعيشون اليوم في بحر متلاطم من المذاهب الأدبية التي وفدت الينا من الغرب . وهي مذاهب تختلف منهجاً وأسلوباً . . من الكلاسيكية الى الرومانسية ، إلى الواقعية ، الى الرمزية ، الى السريالية . وأخيراً وليس آخراً الى « الوجودية » ، فالأدب الملتزم أو الهادف ، وكلها مذاهب وفدت الينا من الغرب فانجذبت اليها نفوس بعض الأدباء ، فأخذوا يحتذون أساليبها واتجاهاتها ويقلدونها تقليداً أعمى ، فنجح منهم القليل القليـــل ، وأخفق الكثير الكثير فكان ثمة هذا الاضطراب والخلل في احتذاء هذه المذاهب التي قلّدت ولم تنبع من ذوات النفوس .

وما نزال بين « اجترار » أدب الماضي و « تقمّص » هذه المذاهب المختلفة ـ ما نزال نتخبّط ولما ندخل ميدان الإبداع والخلق الأدبي الذي يكتب له الخلود . . ومن البدائه أنني أستثني بعض الأعلام الذين استطاعوا أن يرتفعوا بأدبهم الى الذّروة ، وأن لا يقل انتاجهم الفكري قيمة عن انتاج كبار أدباء العصر .

أعود فأقول انه من الصعب أن يتنبأ الإنسان عن مستقبل أدب ما زال عصرنا يفاجئنا غده كل يوم . بل كل لحظة بالأعاجيب التي تبدعها أدمغة العلماء اللهم إلا إذا أردنا أن نتخبّط في الحديث أو نتكهّن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولنا ، والحمد لله ، في عصر السحرة والكهّان ، وكل ما نستطيع محاولته أن نفترض وأن نرسم بعض الصور الباهتة ، على ضوء ما مرّ به أدبنا خلال عصوره السحيقة ، متدرجين مع الزمن الى عصرنا هذا ، نطل بعدها إطلالة من وراء السجف ، علّنا نتبيّن معالم غدنا المشرق أو المظلم لا أعلم .

نعم ، لا علينا ، قبل أن نخوض لجج هذا البحث ، ونغرق في خضمّ محيطه ـ لا علينا أن نرجع قليلاً الى الوراء نتلمّس بعض الصور التي برزت واضحة من معالم أدبنا العربق خلال عصوره الطويلة .

* * *

فقد مرّ أدبنا العربي منذ العصر الجاهلي الى العصر الحديث بألوان مختلفة تصوّر الكثير من صور الحياة ـ حياة العربي في بداوته وأطواره الأولى ، حياته في صدر الإسلام حين تنازعته موجة الصراع بين الوثنية والإيمان ، حياته وهو يخوض معارك البطولة ويفتتح الثغور والبلدان ، ويجتاز الأمصار والبحار في سبيل نشر رسالة الحق والنور . حياته وهو يبني الممالك ويوطّد دعائم الحضارة ويبشر بمبادئ الأخوة والحرية والعدالة .

من حياة الصحراء بلونها الأغبر الأكدر ، الى حياة النعيم والترف الذي انتهى بهم الى الميوعة والانحلال ـ تلك الفترات التي اصطرعت فيها المذاهب الدخيلة التي بذر بذورها « الهدامون » و « الشعوبيون » ومَنْ اليهم من الانحلاليين ، والتي انتهتْ بنا الى عصور الانحطاط حيث عاش أجدادنا خلالها في غيبوبة أهل الكهف الى أن بدت خيوط الفجر . فجر اليقظة في أوائل القرن التاسع عشر وانتهت بيَقظةٍ عارمة تعيشها الأمة العربية في يومنا هذا . وتحاول أن تبني نفسها من جديد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخلال هذه الفترات الطويلة ، كان الأدب في الكثير من صوره معبراً عن أصدق ما يحسه الإنسان العربي : عبّر عن خلقه ، عن خصائصه ، عن مروءته ، عن وفائه ، عن كرمه ، عن إيثاره ضيفه ، عن غزواته ومعاركه ، عن عبثه ولهوه ، عن شرابه وطعامه ، عن المرأة التي كانت ريحانة قلبه ، عن مباذله وأهوائه ، عن زندقه وشكوكه ، عن يقينه وإيمانه ، عن نسكه وصلواته ، عن تهجده وخلواته ، وبالاجمال عن جميع مظاهر حياته ما ظهر منها وما خفي ، وما بدا وما استتر .

فكان لنا صور حية من الأدب الرمزي على لسان المتصوفين ، وصور من الأدب الوجودي على لسان شعراء المجون .

ولا نجانف الحقيقة حين نقول إن المذاهب الأدبية التي جاءتنا من الغرب ، وقلدها بعض أدبائنا وشعرائنا ، والتي أشرت اليها في صدر هذا البحث ، لها عندنا الكثير من الصور والنماذج .

فحديقة الأدب العربي القديم مليئة بهذه الأثمار الجنية ، ولكل ثمرة طعمها ومذاقها ولونها وعبقها ونكهتها . فمن صور كلاسيكية ، الى رومانسية ، الى واقعية ، الى رمزية ، الى وجودية ، الى ملتزمة هادفة .

فشاعرنا الجاهلي حين وصف بيئته وصفها بصدق . وَصَفَ الصحراء وقيظها وكلأها ومرعاها وجملها وخيامها ، وهذه الحروب التي نشبت بين قبائلها ، ولم يهمل العاطفة الانسانية فرسم خوالجه النفسية . وتحدث عن حبه وحنينه وفخره ، وبكى الأطلال فنثر عليها دموعه ، وارتسمت على ظلالها ذكرياته .

فاذا انتقل الى غمار المدينة ونعم بترف الحضارة تغيّر لون أدبه ، فحياة الملوك وقصورهم وجواريهم وندماؤهم وشعراؤهم ، ثم مطارف الحياة الرغدة التي انتقلت اليهم من الفرس والروم ، الى تطور الفكر وازدهار الحياة العقلية — كل ذلك كان له أثره في أدبه ، وفي شعره ، وفي منهج تفكيره . فقد عاش الأديب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما عاش الشاعر في العصر العباسي حياة تغاير حياة مَنْ سبقه من الأدباء في العصرين الجاهلي والإسلامي .

كانت الحياة مزيجاً من الهدى والضلال ، من الكفر والإيمان ، من الشقاوة والسعادة ، ومن مختلف التيارات التي برزت صورها جلية في أدب الأدباء وشعر الشعراء ، وهكذا دواليك من عصر الى عصر .

فالواقع ، ان تاريخنا الفكري تعجّ صفحاته بأسماء أعلام من العباقرة ، تركوا لنا ثروة ضخمة وميراثاً رائعاً من الأدب الإنساني ، من الحكم والآراء ، من المذاهب والعقائد ، من المأثورات الفكرية والتأملات الفلسفية التي ستظل خالدة مهما تطاول عليها الزمن ، نرجع اليها فنرى أضواء من عبقرية الأمة العربية التي بَنَتْ فأحكمت البناء ، حتى اذا تخلت عن مُثُلها ، وتنكرت لأخلاقها ولفضائلها ولكثير من خصائصها ، تفككت أوصالها ، ودبت الميوعة ، ودبّ الخلل في كيانها حتى كادت ، لولا مناعتها ، ان تبتلعها الأحداث وتطويها الاقدار .

وليس موضوعي الحديث عن عبقرية الأمة العربية لأجول في هذا الموضوع جولة واسعة تحسبي الإلماع ، ولأقف وقفة قصيرة مع غير واحد من أعلامنا الخالدين الذين بذروا في حقل الإنسانية بذور معارفهم وتجاربهم ؛ وخلاصة آرائهم وفلسفتهم في حقائق الكون والحياة والمعتقدات صحيحها وباطلها ، فكانوا بحق رمز الفكر الحر ..

من هؤلاء الأعلام الجاحظ والكندي وأبو العلاء وابن خلدون وابن رشد وابن عربي والغزالي وابن طفيل وابن الهيثم وغيرهم من العباقرة الذين تركوا للإنسانية أعظم ميراث فكري .

فالجاحظ الذي كانت عقليته المتفتحة موسوعةً عجيبة لكل الفنون والآداب ـ أريد علوم عصره ـ لم يترك ظاهرة أو مشكلة عويصة من مشاكل الحياة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الا عرض لهـا وكتب آراءه الجريئة بأسلوبه الرائع الذي يجمع بين روح الأديب الساخر وعقلية العالم الناقد فترك ثروة أدبية ما تزال تحتفظ بجدتها الى يومنا هذا .

وفي مجال التاريخ عرفت العربيـة أكثر من مؤرخ فذ تعرض الى تأريخ الأحداث بنزعة علمية وعقلية متحررة . وفي طليعتهم ابن خلدون . هذا العقل الجبار الذي يقول عنه أرنولد توينبي أكبر مؤرخي القرن العشرين : ان ابن خلدون نسيجُ وحده في تاريخ الفكر البشري ، لم يدانه مفكر كان من قبله ، أو جاء من بعده في جميع العصور .

وفي ميدان العلم نذكر ابن الهيثم رائد البَصَريات الذي عدّه الأستاذ سارتون من أكبر المشتغلين بالبصريات في جميع العصور .

وحين أمرّ هذا المرور السريع بالإلماع الى بعض اعلامنا البررة أردت الإشارة الى حياتنا العقلية التي أعطتْ البشرية ثماراً ناضجة من الأدب الانساني ، إذ لا يتسع المجال لكي أرمز الى خصائص أدب وفلسفة الكثيرين : من المتنبي ، الى المعري ، الى أبي تمام ، الى ابن الرومي الى الكندي وابن باجه وابن الطفيل وابن عربي والرازي والغزالي وغيرهم وغيرهم من الفلاسفة والشعراء والأدباء .

فأدبنا منذ العصر الجاهلي ، الى نهاية العصر الأندلسي ، امتلأت صفحاته بآيات رائعة خلدت في ذهن الأجيال .

والواقع ، ان العقل العربي ، حين يخلو الى نفسه ، وحين يتأمل ، وحين يتجرّد من الموبقات ، وتصفو ذاته من الكدورات والضغائن والأحقاد من جميع التيارات الدنية يستطيع أن يبدع في شتى المجالات ، وقد أبدع أي إبداع .

وتتجلى أصالة هذا الإبداع في التعبير الصادق عن كل ما يصفه . وهـذا الذي جعله يخلد ويعيش حياً الى جانب آداب الأمم الحية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم مرّت فترة ركود مخزية كان للعوامل السياسية أثرها في هذا الركود وهو ما نطلق عليه في تاريخنا الأدبي بعصر الانحطاط ، فقد كان الأدباء والشعراء يجترّون تفاهات وخلق العصر الذي عاشوا في صميمه .

كان المَلَق والرياء والاستخذاء بعض عناصره ؛ فالمدح والرثاء الكاذبان ، والمداعبات السمجة ، والإخوانيات التي تتميز بكل شيء إلا من صدق الأخوة ، والتزلف المخنث ، والهجو المقذع ـ هذه الفنون الأدبية المزيلة هي التي شغلت العقل العربي الذي أصيب فترات طويلة بالعقم .

ومردّ ذلك فقدان الأديب العربي لحريته ، ومَنْ يفقد حريته يفقد شخصيته ، وتخمد جذوة مواهبه وملكاته ، بل يعيش آلة تدور دون حسّ ودون تفكير . فالحرية هي غذاء الأديب ، وقلما ازدهر أدب في عصر الظلمات والمظالم .

قد يعبّر الأديب ، في تلك الفترات العصيبة ، عن ألمه ، عن هواجسه ، وقد يصف البؤسَ الذي يهدّ كيان مجتمعه ويُنهك قوى أمته ، وقد يرمز الى الطغيان خشية بطش الطغاة إذا ما أفصح جهراً عن طوايا صدره ، ولكن يظل أدبه مغموراً بضباب كثيف من الكتب ، وتنزع نفسه دائماً الى جوّ حرّ منطلق .

فالحرية ليست زاد الأديب وغذاءه فحسب ، بل هي ، في ميدان الكفاح القومي والإنساني ، حياته . ومن هنا ، كان أدبنا ، خلال عصور الانحطاط ، أدباً ضحلاً ، بمحتواه وشكله ، لا يتميز بابداع الأدباء الذين عاشوا في أجواء الحرية .

وظلت الأمة العربية مفككة الأوصال الى بداية القرن التاسع عشر ، أو الى منتصفه اذا أردنا الدقة ، فأخذت الغيوم الكثيفة تنحسر شيئاً فشيئاً . وأخذ بصيص النهضة يلتمع ، وبدأ الأدب يتنسّم عبق الحرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا أسترسل في تأريخ هذه الفترة التي مرّت سراعاً الى بداية الحرب العالمية الأولى ، فالحرب العالمية الثانية حيث كان الوعي القومي أخذ ينضج . فتبدّل لون أدبنا ـ من أدب الميوعة والاستخذاء ، الى أدب القوة والتعبير عن منازع الحياة ومشاكل المجتمع .

واستطاع في فترة جدّ قصيرة أن يحبو ، وأن يمشي ، وأن يقفز ، وأن يجاري ، في بعض مجالاته ، أدب الغرب . وأن يعطي ثماره اليانعة في شتى الفنون .

فكان أدب المقال بلونه الرصين المتميز ، وأدب الدراسات المنهجية ، والقصة والرواية والشعر والنقد والترجمة فلم يترك الأديب فناً من فنون الأدب إلا وعالجه باطمئنان .

ولئن كان الكثيرون من أدباء الشباب ما زالوا يتعثرون في سيرهم . ولئن كان المبدعون جدّ قلائل ، إلا أن الطريق السويّ قد مهّد وعبّد فلم يعد أدبنا المعاصر رصف ألفاظ وتزويق كلام واجترار أفكار ، بل أصبح أداة لرسم خوالج ، وتعبيراً عن مشاكل الإنسان العربي ، عن مجتمعه القلق الذي يعيش في عصر تتصارع فيه مختلف التيارات وتسوده نزعات غيرت وجه الحياة تغييراً مذهلاً .

ففي صفور ماضية ، كما ألمعنا ، تجاوب أصيل مع تيارات زمنه ، فاذا التفت الى الوراء كانت لفتة الحنين لا لفتة الانكماش والانطواء .

ودليلي على هذا الفترة التي مرّ بها أدبنا خلال المئة عام .

فبالرغم من تباين ألوانه من عهد اليازجي والبستاني والشدياق ومحمد عبده والمويلحي وحسّون والدلال والكواكبي الى عهد جبران خليل جبران وشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي ومحمد كرد علي والمنفلوطي والرافعي والريحاني ، الى عهد طه حسين والعقاد والمازني وهيكل وأحمد أمين وميخائيل نعيمه والزيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وشفيق جبري وخليل مردم بك والأمير مصطفى الشهابي وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وغيرهم ـ بالرغم من تباين ألوانه فهو صورة صادقة لحياة الأمة العربية في نمط تفكيرها ، واتجاه منازعها ، في نضالها وكفاحها ، في سيرها ومجالات تطورها وثوراتها .

ولعل النزعة القومية والنزعة الاجتماعية هما أقوى ما نلمسه في أدبنا المعاصر .

وقد تجاوب مع النزعات الإنسانية ، وأخذ من حضارة العصر الكثير من المذاهب ، إلا أن أقوى سماته هي النزعة القومية الصارخة التي تنشد الحرية والكرامة للإنسان العربي الذي مازال يعيش في صراع مرير مع الحياة البورجوازية ، ومع النزعات الرجعية .. وأخيراً مع سرطان الاستعمار الذي لا يزال يسيطر على الكثير من خيرات الوطن العربي وكنوزه يستغلها بشراهة أبشع استغلال .

فنحن حين نقايس بين لون الأدب خلال هذه الفترات التي مرّت منذ نصف قرن الى يومنا هذا ، نرى ، كما قلت ، الكثير من الفوارق بين مضمونه وشكله ، من أفق ضيق الى أفق فسيح ، من أغراض محدودة الى تيارات متدافعة أمواجها تعبر عن قلق الإنسان العربي ، عن يقظته وثورته وتطوّر أفكاره .

ولست من القائلين بأن أدبنا المعاصر في ركود وتخبط ، وان أمسه القريب أحسنُ من حاضره المضطرب .

ولئن دخل الساحة أدباء تميز أدبهم بالميوعة والخلل والاضطراب وتفكك الأسلوب ، وغمسوا أقلامهم بمعين من شهوات المراهقين واضطراب هواجسهم وانحراف أحلامهم وميولهم ، فان مثل هذا اللون من الأدب لن يكتب له الحياة ، ولن يمثل العقلية المبدعة المتجددة التي تنتج أدباً يقترب من الأدب الحيّ .

فأدب الغد ـ أريد أدبنا ، سيتجنب هذه الميوعة . وسيعالج مشاكلنا ونزعاتنا وأهواءنا وقلقنا وهواجسنا معالجة عميقة على ضوء من أحدث نظريات علم النفس ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسيكون أصدق معبر عن وثبة الأمة العربية في تطورها وشتى مجالاتهـا وفي أخذها بأحدث النظم التي تصون للإنسان حريته وتضمن له هناءته .

وحين تنمحي الأمية من شتى الأقطار العربية ـ وهي آخذة بالاضمحلال ـ ، وحين تسود المعرفة آفاق الوطن العربي ، ستزداد طبعات « الكتاب العربي » من الآلاف الى الملايين ، وإنا لبالغوها قريباً وقبل أن نشرف على فجر القرن الواحد والعشرين .

وفي نطاق هذا الوعي الفكري لن يقذف الأديب بكتابه : بقصته وديوانه ومسرحياته ودراساته ـ لن يقذفها الى المطبعة قبل أن يحاسب نفسه ويحسب أكبر حساب لذوق القارىء العربي وثقافته التي لن تهضم أدباً غثاً يجتر آراء تافهة بل سيكون أدبه إلهاماً وعلماً وتصويراً صادقاً لشتى منازع الحياة .

وسيكون للعلم الذي سيقلب شكل الحياة ، وللعلم النفس بصورة خاصة ، الأثر الأكبر في اتجاه الأدب ، وأريد أن أعتقد ، أن الأدباء في غدهم لن يتهاونوا بجمال الأسلوب الذي يوائم جمال الفكرة ، وأنه سيأخذ طريقه الى السهولة ، وسيزداد غنىً وثروة بالاصطلاحات العلميـة ، ودقة ورشاقة بالاصطلاحات الفنية والسيكولوجية ، وسيتميز بالوضوح بحيث لا يدق فهمه على الجماهير التي تكون قد أخذت بحظها من الثقافة العامة ، وبذلك تنتفي معضلة ازدواج اللغة ـ أريد العامية والفصحى ـ ، وبعد أن تصبح العامية محدودة في نطاق ضيق ، سيرتفع مستواها وتكون قريبة من الفصحى . .

وحتى لغة العلم ذاتها ستتلوّن باطار شفاف من عذوبة الأسلوب السهل الذي يضفي عليها جمالاً وجزالة هما بعض أسرار لغتنا العربية التي عاشت عصوراً طويلة تهضم مختلف الثقافات دون أن تتخلى عن سر حيويتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا أقول إن أسلوب الغد سيكون الأسلوب التلغرافي ، كما كان قد تنبأ بذلك قبل ثلاثين سنة الأستاذ سلامة موسى ، بل أقول انه سيكون الأسلوب العلمي الذي لا تزيد ألفاظه على معانيه بحيث يعبر أصدق تعبير عن الفكرة ، ولا علينا أن نقول انه « السهل الممتنع » .

ودليلي على ذلك أسلوب الأدباء العلماء في عصرنا هذا ، فقد بلغ القمة من حيث الجزالة والقوة والإشراق .

ولا أغالي إذا قلت إن أساليب بعض كبار أدبائنا المعاصرين قد تزت أساليب الكثيرين من أئمة البلاغة في عصورنا الذهبية الماضية .

هذا رأي قد يعارضني به بعض القدامى ولكن معارضتهم لن تثنيني عن رأيي .

فقد ارتقت أساليبهم كما ارتقت أساليب العلماء رقياً واضح الأثر ، فهنالك سهولة وجزالة وقوة إشراق وصياغة رائعة للفكرة مهما دقت .

حتى الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية ـ لقد بلغت الأوج من حيث الدقة والجزالة والإشراق سواء أكانت هذه الكتب قصصاً أو علماً أو فلسفة . .

والشعر ما شأنه ؟ لقد تطور مفهومه ، وتطورت أوزانه وقوافيه . . لقد طغت موجة الشعر الحر أو الشعر المرسل ـ على أوزان الشعر القديم .

والذي أعتقده أن هذه الموجة ستأخذ طريقها الى أقلام شعراء الغد .

وكل ما أرجوه أن يخلو شعرهم من الهلهلة والميوعة وفقدان الشاعرية الأصيلة .

اننا نقرأ الآن شعراً مرسلاً فيصيبنا الغثيان ، ولا نجرد بعض المقطوعات ـ وما أقلها ـ من الشاعرية التي تهز نفوسنا ، فهي وإن خلت من الإيقاع الموسيقي إلا أنها تحمل حروفها شعلة الوحي وقد سربلت بألفاظ مجنحة لا تنأى بها عن الشاعرية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إننا لا نستطيع أن نجرّد هذه المقطوعات من الشعر الصادق سواء أكان مرسلاً أو موزوناً لأنه شعر ينبع من الأعماق .

وللأديب العربي الكبير الدكتور طه حسين رأي في هذا الموضوع لا بأس من إثباته لأهميته . وهذا الرأي هو في موضوع انشطرت الآراء حوله ، فهو يقول :

« . . إنني أعلم أن من الشباب طائفة يرون لأنفسهم الحق في أن ينحرفوا عن مناهج الشعر القديم ، وعن أوزانه وقوافيه خاصة .

ولست أجادلهم في هذا الحق ، بل ليس لي أن أجادلهم ، فأوزان الشعر القديم وقوافيه لم تنزل من السماء ، وليس ما يمنع الناس أن ينحرفوا عنها انحرافاً قليلاً أو كثيراً أو كاملاً .

ولكن للشعر قديماً أو حديثاً أساً يجب أن تراعى ، وخصائص يجب أن تتحقق .

فليس يكفي أن ينشئ الإنسان كلاماً على أي نحو من أنحاء القول ، ثم يزعم لنا انه قد أنشأ شعراً حديثاً ، وانما يجب أن يحقق في هذا الكلام الذي ينشئه أشياء ليس الى التجاوز عنها سبيل .

فالشعر يجب أن يبهر النفوس والأذواق بما ينشئ فيه الخيال من الصور ، ويجب أن يسحر الآذان والنفوس معاً بالألفاظ الجميلة التي تمتاز أحياناً بالرصانة والجزالة ، وتمتاز أحياناً أخرى بالرقة واللين ، وتمتاز في كل حال بالامتزاج مع ما تؤديه من الصور لتنشئ هذه الموسيقى الساحرة التي لا تنشأ من انسجام الألفاظ فحسب ، ولا من التئام الصور فحسب ، وإنما تنشأ من هذا الائتلاف العجيب بين الصور في أنفسها وبينها وبين الألفاظ التي تجلوها بحيث لا يستطيع السمع أن ينبو عنها ، ولا تستطيع النفس أن تمتنع عليها ، ولا يستطيع الذوق إلاّ أن يذعن لها ، ويطمئن اليها ، ويجد فيها من الراحة والبهجة ما يرضيه ، فاذا استطاع الذين يحبون هذا الشعر الحديث أن يقدموا الينا منه ما يمتعنا حقاً فمن الحق أن نشكره ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأن نلتوي عنه ، لا لشيء إلا لأنه لم يلتزم ما كان القدماء يلتزمون من الأوزان والقوافي .

وابتكار الشعر الحديث والانتتان في هذا الابتكار ليس شيئاً يمتاز به شعراء العرب المعاصرون من الأمم الأخرى ، وانما هو شيء قد سبق اليه شعراء الغرب منذ وقت طويل ، فشعراؤنا حين يجددون لا يبتكرون وانما يقلدون قوماً سبقوهم ، وليس عليهم من ذلك بأس اذا أجادوا وأحسنوا وعرفوا كيف يبلغون من نفوس معاصريهم ما بلغ شعراء الغرب من نفوس الغربيين على ما يكون بين الغربيين من اختلاف اللغات وتباين الأذواق . . » .

ويتابع الدكتور طه كلامه فيقول :

« ان الشعر العربي لم يكد يعيش نصف قرن بعد ظهور الإسلام حتى أخذت أوزانه تخضع لألوان من التطور ، دخلت عليه الموسيقى التي جاءت بها الشعوب المغلوبة ، ودخلت عليه حضارة جديدة لم يألفها الشعراء العرب الجاهليون ، فتغيرت النفوس وتطورت الطباع ورقت الأذواق وصفت ، ولم يكن للشعر بدّ من أن يتأثر بهذا كله ، ويصبح ملائماً للحضارة الجديدة وما أنشأت من طباع جديدة وأذواق جديدة أيضاً ؛ وقد قصرت أوزان الشعر وخفت لتكون ملائمة للتوقيع الموسيقي الحديث [1] » .

إنني لا أدافع عن الشعر المرسل ، أو كما يسميه الأستاذ العقاد « الشعر السايب » بل أؤرخ واقعاً لا يمكن تجاهله ولا أقول انه يجب أن يكون للشعر المرسل مقاييسه . وما أظن أن شعراء الغد سيتخلون عن هذه المقاييس .

إننا في بداية عصر ذهبي ، وسيكون غدنا الأدبي أزهر وأكثر إشراقاً

(١) جريدة « الجمهورية » العدد ٢٣٠٠ ، ٧ ابريل « نيسان » سنة ١٩٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من حاضرنا ، فقد استطاعت المناهج الحديثة أن توجه العقل العربي توجيهاً صادقاً .

واعتمدت الجامعات في مصر وبيروت ودمشق وحلب وبغداد وتونس والرباط المناهج الصحيحة للدراسات الأدبية والتاريخية والعلمية والاتنوغرافية ، وهي مناهج تدفع شبابنا الجامعي أن يفكّر التفكير العلمي في دراساته وبحوثه .

وسيكون الجيل الجديد الذي يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين متجاوباً أبلغ التجاوب مع الحضارة الآلية .

ونتساءل ماذا يكون لون أدب الغد ؟ هل يكون قومي الطابع أم إنساني الزي ؟ هل تكون مادته الحياة العاطفية أم الروح العلمية .

أظنني ، بعد أن طفت بالقارئ ، في هذه المرحلة الطويلة التي مرّ بها أدبنا عبر العصور - أستطيع أن أقول أن أدبنا في غده ، الى تجاوبه مع النزعات الحضارية بشتى ألوانها لن يتخلى عن رسالته الروحية التي تريد للانسانية الحياة الباسمة التي تنعم بالدعة والهناء .. فالعربي عاطفي ، انساني ، فني تصويره انزعاته ، ولبيئته ، ولمشاكل قومه سيكون إنساني التفكير في معالجته مشاكل الشعوب وقضايا البشر .

سئل أحد المستشرقين المعاصرين عن رأيه في مستقبل الأدب العربي المعاصر فقال:

« إن هذا الأدب سيطل قريباً على آفاق جديدة ، لم يقرأ فيها من قبل ، فالأحداث والتطورات التي جرت في الخمس عشرة سنة الأخيرة قد غيرت كثيراً من الأمور ، وبدّلت كثيراً من المفاهيم ، فكان طبيعياً أن يؤثر ذلك في الحياة الفكرية والأدبية أسوة بتأثيره في سائر نواحي الحياة . واني لمتفائل من جهة الأدب العربي المعاصر ولكن بشرط أن يعي المؤلفون من كتاب وشعراء ان الأدب الإنساني الحيّ ، الخليق بالانتشار في مختلف البلدان وبين شتى الشعوب ، انما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو الأدب الذي يعبّر عن حياة معينة لشعب معين في بلد معين ، فيعاني قضايا هذا الشعب ، ويغوص في أعماق مصيره ، ثم يصوّر هذا كله تصويراً أصيلاً طريفاً على غنى ثقافة وحفاوة بالجمال [1] » .

وما أظن الأديب العربي سيتحول في غده عن هذا الاتجاه ، واذا افترضنا أن العالم العربي سيتحرر قريباً من شتى ألوان العبوديات قبيل انبثاق فجر القرن الواحد والعشرين ، وان الحواجز المصطنعة بين الأقطار العربية قد زالت نهائياً وتحققت فكرة الوطن العربي الكبير ، وان يد العلم قد هزّت بعصاها السحرية الأفئدة والعقول وامتدّت الى كنوز أراضينا المخبوءة تستغلها أيرك استغلال . وان حضارة انسانية مشرقة التعاليم قد أخذت تنبع من « ذاتنا العربية » وترسل اشعاعها الى العالم ، اذا تحققت هذه الأمنيات الغالية ـ ولا يخامرني أدنى شك بأنها ستحقق ـ قدّرنا أي صفحات جديدة ستخطها يراعة « أديب الغد » الذي سنفتتح أمامه المجالات ، حتى تلتقي حضارتنا الروحية مع الحضارة الآلية ، فيصبح أدبه أدباً متميزاً يصوّر العقل المتطور الى تصويره حيوية الشعب العربي الذي استطاع في الماضي أن يهضم حضارة الفرس والاغريق ، وأن يصوغ منها حضارة جديدة عاشت في ذهن الإنسانية عشرة قرون وما تزال . .

نعم ، سيكون أدب الغد أدباً فريداً متميزاً يساير الحضارة الآلية التي ستكون بنزعاتها التطورية حضارة روحية عميقة الجذور بأصالتها الإنسانية .

إن هذا اللون من أدب الغد الذي سيصوّر الإنسان العربي بشتى خصائصه لن يكون أدباً تسيغه أذواقنا فحسب بل سيكون حلو المذاق عند سائر الأمم .

---

(١) من حديث للمستشرق سيمون جارجي رئيس تحرير القسم العربي في مجلة « اوريان » العالمية والأمين العام للمؤتمر الدائم للأدب العربي المعاصر الذي عقد حلقته الدراسية الأولى في روما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلن يقف أديبنا حيث يسير العالم ، ولن يرجع الى الماضي بل سيرنو الى المستقبل . وسيتجاوب مع انسان الغد الذي يدور حول الأرض ويخترق الفضاء ويتسلح بأحدث أسلحة العلم .

وبعد فأقف عند هذا الحد لأقول بعد أن مجست بما شعرت به عن مستقبل أدبنا : انه ما من أحد يجرؤ أن يكشف حجب الغد . . فمن صوانح بول ڤاليري قوله :

« إن الرومانيين كانوا يجدون في بطون دجاجاتهم أفكاراً منطقية ، وذات نتيجة ايجابية أكثر مما تحويه علومنا السياسية . وهذا الإخفاق يثير الكثير من الاستغراب . إذ أن العقل البشري لم يكن ليحرز انتصارات ظاهرة مثل التي أحرزها .

وفي خلال نصف قرننا هذا ازدادت سيطرة الرجل على الطبيعة ، بصورة انه لم يكن باستطاعة أي عالم من علماء سنة ١٩٠٠ الجرأة على التنبؤ بها .

فهل يتمكن الإنسان في النصف الثاني من العصر الحاضر من وضع أنظمة بمستوى اختراعاته ؟ هل يمكنه أن يقيم دولة عالميـة ؟ هل تزول الحروب التي لم تعد ملائمة لبقاء النوع البشري » ؟ . مَنْ يدري ؟ اننا نعيش في عصر يتسابق عباقرة علمائه لتسجيل اختراعات مذهلة لا ندري ما سيكون أثرها في حياة البشرية .

هل ننعم بسعادة أزلية تدنينا من النعيم الذي وُعد به المتقون أم سنشهد أروع مأساة بشرية نختم به الفصل الأخير من نهاية الدنيا .

هل تطغى الحكمة والعقل على الهوى ، أم ان النزوات والمطامع هي التي تتحكم في عقول الساسة الذين يلوّحون بالسلام ويعملون لحرب مدمرة لا تبقي ولا تذر .

نريد أن نكون متفائلين ، ونريد أن نعتقد أن رسالة العلماء لن تكون قنبلة ذرية بيد ثعالبة السياسة ، وانهم مهما حاولوا التهويل في سبيل مطامع زائلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

سيكونون ، في اللحظات الحاسمة ، انسانيين ، وان البشرية ستنعم برغد الحياة ورفاهتها ، وان الأدب سيصوّر هذا الجانب المشرق من الحياة .

هذا ما أحلم به ، وهذا ما أريد أن يكون «أدب الغد» صورة عنه .

وبعد فهذه هواجس صورتها بصدق وان كنت واثقاً أنه ما من انسان يجسر أن يخترق حجب الغيب ويتحدث عن المستقبل .

إن الغد سرّ لا يمكن استجوابه والنفاذ الى كنوز أسراره .

إنه أحجية الإلهّ الغامضة التي وضعها للبشر ليبرهن لهم أن عقولهم قاصرة ، وانه هو القادر المتصرّف في شؤون الكون والحياة .

(حلب) سامي الكيالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net